صوتها ضمة برقٍ فوق نيسان

(إلى فيروز)

شوقي بزيع

ليس صوتاً،
بل نهارٌ مشمسٌ بين شتاءين
وأنصافُ بحيراتٍ
وشلاَّلُ خواتمْ
هو ما يجعلنا نبكي على ما لم يَضِعْ بعدُ،
ومـا يسقـط مـن ورق الحـوْرِ علـى النّهر،
وما يجعلُ من قطعة موسيقى
أكاليل زهورٍ
وشموعاً ومآتمْ
هو ما يشتقُّ من باقةِ أحلامٍ
غيوماً لسماءِ البارحهْ
هو ما نسمعُهُ باللَّمسِ
أو ندركُهُ بالظنِّ
أو نلمسهُ بالرّائحهْ
كلّما انساب تراءتْ في مدى الأفقِ
شبابيكُ فلسطين
وأشجارٌ معرَّاةٌ
وخيطانٌ من النّسيان
ترفو ما تبقّى من حريرِ الأندلسْ
كم خريفاً يتوارى
خلف هذا الذّهبِ الغامضِ
من أعمارنا الملقاة،
كم أيلولَ نحتاجُ
لكي نرجع من صفرتنا نحو الوسادهْ؟
ليس صوتاً هوَ،
بل رجعْ فراديسَ وريحٌ مستعادهْ
هو ما يجعلُ وجه المرأةِ الأولى
مكاناً للعبادهْ
وطنٌ أمّ وردةٌ في الرّيحِ
أمّ سهلُ غمامْ؟
ذلك الهمسُ السماويُّ
الّذي يسقطُ من حنجرةِ الغيب
وينحلُّ مزاميرَ وأهداباً وأسرابَ حمامْ
عبثاً نبحث عمّا يفصلُ البرَّ عن البحر
وعمّا يجعل الصّرخةَ أعلى من بلادٍ
وصدى الصّرخةِ
ووِدياناً وقطعانَ كلامْ
لتغنِّي ينبغي أن نـوقـظ المـوتـى من النّوم
وأن نطلق سهماً من عصافير
على الشّمس،
وأن نُرفق بالفجر تراتيل
وأعياداً جديدهْ
لتغنِّي ينبغـي أن يحكـم الأزرقُ فـي الأرض،
وأن نشتقَّ من مملكة الآلام
عشرين مسيحاً
وقياماتٍ
وأطفالاً ينامون على شرفةِ آمادٍ بعيدهْ
لتغنِّي
ينبغـي أن يـزهـر اللّـوز علـى قـرميـد

←

بيروت،
وأن تكتسيَ الصّحراءُ بالثّلجِ
والفضّةُ بالدّمعِ،
وأن نلتمس الشّمس من الغربِ
وأن نعتصر الأجراسَ من ثدي الكنائسْ
أيُّ فجرٍ يجعل العالمَ نهراً
من أناجيلَ
وذكرى شهرياراتٍ
وترجيعَ غناءْ؟
لكأنَّ الشّرق إذ تُنشدُ
مهدٌ أبديُّ الموجِ
محمولٌ على قطرةِ ماءْ
صوتها الأشجارُ منظوراً إليها
من قطارٍ هاربٍ كالعمرِ،
والأرضُ محلوماً بها من كوكبٍ أعمى
يغنِّي دونما نهرٍ
على درب السّماءْ
صوتها مئذنةٌ تركضُ في سهلٍ
وحبلٌ من ضبابٍ
يتدلَّى من وصايا الأنبياءْ
صوتها العشبُ الّذي يُوطأُ بالأرواح،
والماءُ الّذي يرشحُ من حزن التّماثيل
وممّا يتبقّى من غبار النّيلِ
في جفنِ المقطَّمْ
صوتُها ضُمَّةُ برقٍ فوق نيسان،
بقايا فرسٍ تصهلُ في مذبحةٍ مرَّتْ،
رنينُ الشّمس في البلّور،
غيمٌ أحمر الأزهارِ
يهمي
كمراثي زينبٍ فوق محرَّمْ
صوتها هندسةُ اللّون،
خطوطٌ تنحني في قبّةِ الصّخرةِ
كيما تلمس الرّوح،
ومعموديَّةٌ أخرى لأردنِّ الطّفولاتِ
الّتي تقطرُ من أهداب مريمْ
صوتها شعبٌ من القتلى
وكفُّ امرأةٍ واقفةٍ في القُرنةِ السّوداءِ
كي ترثي بلاداً
غربتْ في سطْر دمْ
صوتها هبّةُ رمَّانٍ على صيدا
وسيفٌ أرجوانيٌّ على صور
وشمسٌ أجهشتْ فوق مخيَّمْ
صوتها طيفُ نبيٍّ
جُنَّ في بُرْدَتِهِ الوحيُ
وفاضتْ روحهُ نخلاً وجنَّاتٍ،
فلمّا أنشدتْ
صلّى على الدّنيا وسلَّمْ
صوتها دفْقة نايات على باديةِ الشّامِ
وأمطارٌ على يثربَ لم تحدثْ
وتسبيحُ ثريّاتٍ على أرصفةٍ
دون مصلّين،
وترجيعٌ حليبيٌّ لماءِ الرّغبةِ المفطومِ
أو قطعةُ ضوءٍ فوق ليلٍ يتهدَّمْ
هو ما لا ينتهي فينا
وما يجعلنا نسبح ضدَّ الموتِ في الموت،
وما يحرس شيخوختنا منَّا
فنجري خارج العمرِ
الّذي من دوننا يذوي ويهرمْ
حين ينسابُ تُرى الأشياءُ بيضاءَ
كما لو أنّها تولدُ للتوِّ
ولا يبقى من الأجسادِ
إلاّ شهوةٌ تصفو وماءٌ يتلعثمْ
من ممرٍّ فاترٍ بين النّدى والفجر ينسلُّ
لكي تفتتح الأرضَ مظلاَّتٌ
وأطيافُ صبايا
ينتظرن المطر العاشق
فوق الأرصفهْ
بهدوءٍ يمخرُ الصّمتَ
ويمتدُّ من الهمس إلى الطّوفانِ،
شعبيّاً كقدّاس،
وسرِّياً كصحراء بلا رملٍ،
ومجنوناً كصدر امرأةٍ
تركضُ تحت العاصفهْ
كم إلَهاً ينبغي أن يُسند الأرضَ
إذا غنَّتْ
لكي نرتجل الصّرخةَ من معصيةٍ
أو رعشةٍ
أو قبلةٍ مختطفهْ
لا سماءٌ بعدُ كي نعلو
ولا وقت لكي نصنع من سجَّادةِ الإثمِ
قباباً وشحاريرَ
ونبني وطناً لن نعرفهْ
أين نلقي بمراسينا إذن.
أين يمضي الصّوتُ فينا؟
هل يرينا الرّوح في منبعها الأوّلِ
أم يصحبنا نحو عراء الموتِ
كيما نتلاشى فيه،
هل نحن مرايا الصّوتِ
أم أصداؤه المرتجفهْ؟
لم نعد من صوتها كي نَصِفَهْ!(*)

(*) من مجموعة «كأنّي غريبك بين النّساء» الّتي تصدر قريباً عن دار الآداب.